الفصل الثاني

محمد بن سعود

obeikandl.com

صفحة بيضاء

obeikandl.com

محمد بن سعود

في الحقيقة إن ما يُعرف عن التطورات العسكرية والسياسية التي حصلت على مدى أول عقدين من فترة حكم «محمد بن سعود» هو قليل جداً. ويمثل هذان العقدان فترة ذات دلالة بالغة في تاريخ الجزيرة العربية، فكان هذان العقدان بمثابة فترة لم يكن العامل المسيطر فيها الرحلات التي كان يقوم بها الملوك والقادة، بل كانت فترة تبرعم فكرة المبدأ العقلاني التي تحولت على الفور لتصبح الفكرة الملهمة والشعار الذي تستخدمه الأجيال القادمة حتى المعاصرة لحث الناس على نصرة الحق.

ولد «محمد بن عبد الوهاب» في منطقة العيينة عام ١٧٠٣ وهو ابن الشيخ «سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد يزيد بن مشرف بن عمر بن مضر بن إدريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب»، الذي كان يشغل منصب قاضي « عبد الله بن معمر» والذي كان والده شيخ ذائع الصيت. وهكذا تعود أصالة وشجرة نسب مؤسس الحركة الوهابية إلى ستة عشر جيلاً أو على وجه التقريب إلى خمسة قرون، وإن بعض أجداده لا بد أن عرفوا واستمعوا لمواعظ «ابن تيمية» الشيخ الإسلامي المرموق الذي كان بمثابة المصدر الرئيسي الملهم لـ «محمد بن عبد الوهاب».

مات الجد الشيخ «سليمان» في زحمة العمل كقاضي للعيينة عام ١٦٦٨، وورث طعم وتقاليد أسرته المتدينة كما كان قد تشرب مبادئ الدين والقضاء من جده «محمد بن أحمد» وورّثهم بدورهم إلى أبنائه «عبد الوهاب» و«إبراهيم».

سبق له أن رافق «عبد الله الثاني ابن معمر» في حملته التي شنها ضد «البير» عام ١٦٦١، حيث - كما أشرنا سابقاً - لعب دوراً بارزاً في مفاوضات السلام بين الطرفين، لابد أن كان «محمد» ذو شخصية مرموقة خاصة حدث له أن عمل وأنجز رسالة بحث حول نقاط دينية محددة ومقنعة، لكنه مزقها عندما علم بأن هناك رسالة بحث حول نفس الموضوع سبق أن عمل عليها الشيخ «منصور البهوتي» الذي توفي عام ١٦٤٢. صنفه علماء الدين مع تلميذه الشيخ «محمد الخلوطي» في مصاف فقهاء المذهب الحنبلي.

من أبرز مشاهير تلاميذه الشيخ «أحمد بن محمد بن حسن بن سلطان القصير» الذي سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن حصار الشريف «سعد» لـ «أشيقر»، والتي شغل فيها الشيخ أحمد منصب القاضي، وتوفي عام ١٧٠٢.

كان أخوه وابنه (وكلاهما معروفان باسم «محمد» من بين ضحايا وباء الكوليرا الذي ضرب المنطقة عام ١٧٢٦ والذي يقال إنه انتشر إلى ما وراء أراضي طويق ووصل إلى منطقة الوشم.

لم نسمع عن والد «محمد» المدعو «عبد الوهاب» سوى ذكر عرضي جاء اسمه مقروناً بولادة ابنه المشهور. كما لا نعلم سوى حقيقة أنه كان تلميذاً يتلقى العلم على أيدي والده «سليمان». وبقي الأمر كذلك إلى أن أقاله «محمد خرفاش» من منصب قاضي العيينة عند توليه السلطة عام ١٧٢٦.

لو كان سنه مقبولاً لدراسة الأمور الدينية في أيام والده، لم يكن بالإمكان أن يخلف والده في ذلك المنصب قبل ثمانية وخمسين عاماً، ولم يكن بعيداً

جداً عن سن الثمانين عندما أعفي من منصبه. لم يكن النضوج الفكري المبكر عند الأولاد عاملاً عادلاً في الأوساط الدينية في تلك المنطقة وفي الدين الإسلامي بشكل عام، لكن يقال إن ظاهرة النضوج الفكري كانت بادية على ابن عبد الوهاب بشكل ملحوظ.

إثر إقالته من الشيخ «أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن عبدالله بن عبد الوهاب» الذي لم يكن من أسرته لا من قريب ولا من بعيد، هاجر واستقر في «حريملاء» ومات فيها وهو شيخ كبير عام ١٧٤٠. كان خلال آخر سنوات عمره يشجع منهج ابنه «محمد»، ويقال إنه توجب عليه في بعض الأحيان أن يحجم بعض الشيء من حماس الشباب الذي بلغ اندفاعه في إعلاء كلمة الله حدود التحفظ في مجتمع لم يكن قد نضج ليتحول عن أساليب العيش السهلة والسائدة آنذاك.

كان الدين الإسلامي دين كل شخص يحترم نفسه في قرى ومدن نجد، وكان ينظر إلى ممارسات الجهلاء في الدين بعين الشفقة، وكان يرثى لحالهم بدلاً من شجبهم وسخطهم. تجاهل من عرفوا بالمواقف المعتدلة أمور التساهل في الواجبات الدينية والعلاقات المحرمة، لكنهم لم يقروا مثل هذه التصرفات. ولم تكن المعتقدات الخرافية في مدى جدوى السحر والقرابين والتضحيات وقوة الأشجار والصخور وقوة سحر القبور في تحقيق رغبات البشر إلا مقياساً لجهل السامريين في مفهوم القداس، وذلك أمر كانت طائفة من اليهود في عهد المسيح (الفريسيين) تتجاهله أو تزدريه، إذ كانوا يعيشون في ترف أكد على حقيقته وضعهم المتميز عن وضع الآخرين. لكن «محمد بن عبد الوهاب» لم يكن يفكر على ذلك النحو، وكان للوضع المزري للعالم

من حوله أثراً سلبياً في نفسه، وكان يتمتع بشجاعة سلفه من البسطاء. مكنته تلك الشجاعة من مجابهة ذلك المجتمع من أجل الدفاع عن قضية سامية في نظره تتخطى كل الاعتبارات الأخرى، مثل: السلام، سهولة العيش، الشهرة، وما شابه ذلك. لكن العمل في درب هذا النضال تطلب الحكمة والتجربة، وليكتسب هاتين الميزتين قرر «محمد بن عبد الوهاب» الترحال. ولا نعرف كم كان عمره عندما قام برحلة خطط لها على صعيد طموح أكثر من كونه محتمل على صعيد التنفيذ.

قام بتلك الرحلة قبل إعفاء والده من منصبه في «العيينة»، ويقال إنه وصل إلى مكة قبل أن يبلغ سن العشرين. والمعروف أن التوجه إلى مكة كان خطوة تقليدية يجب أن يقوم بها من يفكر بالترحال على ذلك النحو. وصل إلى مكة في وقت ما قبل حلول عام ١٧٣٣، ومما يدل على ذكائه أنه زود نفسه بقائمة شملت مراكز العلم التي كان يأمل زيارتها، وذلك لأنه درس الفقه الإسلامي على أيدي والده واطلع بشكل جيد على تفسير القرآن والأحاديث النبوية الشريفة.

وبعد أن أدى فريضة الحج توجه إلى المدينة لزيارة مسجد الرسول ﷺ، ويبدو أنه مكث هناك فترة لا بأس بها ليتلقى المزيد من العلم على أيدي الشيخ «عبد الله بن إبراهيم بن سيف» سليل إحدى الأسر الحاكمة في «المجمعة» والذي كان آنذاك يسكن في المدينة ويدرس فيها. دعى الشيخ تلميذه الصغير ليرى بنفسه الهدية التي كان الشيخ يعدها ليرسلها إلى مسقط رأسه «المجمعة». وقاده إلى غرفة مملوءة بالكتب، وهناك قال له: إن هذه هي هديتي إلى «المجمعة». وعن طريق الشيخ «عبد الله بن سيف» تعرف

«ابن عبد الوهاب» على شيخ علامة آخر مشهور يقال له «محمد حياة المدني» وأصبح «محمد بن عبد الوهاب» يحضر كافة دروسه.

عاد «محمد بن عبد الوهاب» من المدينة إلى نجد، ويقال إنه زار قريته (علماً بأن ذلك غير مؤكد في الوثائق التاريخية) قبل أن يتوجه إلى «البصرة» التي كان ينوي الذهاب منها باتجاه دمشق.

في البصرة بدأ «محمد بن عبد الوهاب» في جلب انتباه أناس ضمن دائرة أوسع من دائرة المدارس، فقد أصبح يتتلمذ على أيدي الشيخ «محمد المجموعي» الذي استطاع بفضل همته واجتهاده في اكتساب العلم أن يحظى باستحسانه. ولكن سرعان ما بدأ بعض سكان «البصرة» في إظهار امتعاضهم من آرائه المتطرفة، وبدأوا يضايقونه، وعندما سنحت الفرصة أبعدوه عن المدينة بشكل فظ وجلف، وكاد أن يموت من العطش وهو يجر قدميه تحت الشمس المحرقة متوجهاً إلى «الزبير». وبينما هو على تلك الحالة من الإعياء والعطش، مر به رجل طيب يجر وراءه حماره يدعى «أبو حميدان» فأركبه على حماره وأوصله إلى «الزبير».

بعد تلك المعاناة وبسبب فقدانه أوراقه الشخصية وكل متاعه ونقوده أثناء المتاعب التي أدت إلى طرده من «البصرة»، وجد نفسه مضطراً للتخلي عن فكرة السفر إلى سوريا. وعليه توجه إلى الأحساء حيث استضافه الشيخ «عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي» وتابع بعدها سفره متوجهاً إلى «حريملاء» وعاش فيها مع والده إلى أن وافته المنية كما أشرنا سابقاً.

في هذه المرحلة من عمره - أي في عام ١٧٤٠ - زاد «محمد بن عبدالوهاب» من اندفاعه وبدأ عمله جهراً كداعية للأخلاق والنهضة الروحانية. واستحسن العديد من الناس في «حريملاء» - من حيث المبدأ - طريقة وعظه، لكن كان عدد المقبلين على تطبيق آرائه حرفياً والالتزام بها في حياتهم الخاصة والعامة قليل جداً. فانقسم الناس في المدن والواحات إلى فريقين رئيسين كان يرأس كل فريق زعيم لا يعترف بزعامة الآخر. وشجعت هذه الحالة انعدام النظام، وما كان يصلح لطرف أو لفريق لم يكن بالضرورة ليصلح للفريق الآخر. وإن ما جعل الوضع أكثر حساسية هو وجود مجموعة من العبيد لدى إحدى هذين الفريقين، وكانت هذه المجموعة من العبيد المحررة أو «العتقاء» تعرف باسم «الحميان» وهم من المزارعين الذين كانوا يتولون شؤون الأعمال اليدوية والري والتعشيب في العديد من واحات الصحراء العربية. وبسبب انغماسهم في الملذات أصر «محمد بن عبد الوهاب» على تطبيق أصول الدين بحذافيره عليهم. ولهذا طوقوا في إحدى الليالي منزله وهم يضمرون الشر له، إلا أن الجيران تدخلوا وأبعدهم عن داره.

وتمشياً مع نصيحة أصدقائه قرر «محمد بن عبد الوهاب» أن يقلع عن اندفاعه الذي لم يلق في تلك المرحلة من دعوته استحسانا، وعاد بعدها إلى «العيينة» التي كان يحكمها في ذلك الوقت «عثمان بن حمد بن معمر» الذي خلف أخاه «محمد» المعروف بـ «خرفاش». ليس لدينا معلومات تفيد عن كيفية وسبب ذلك التغيير في تعاقب الحكام، لكن «محمد بن عبد الوهاب» وجد أن الحاكم الجديد «عثمان بن معمر» أفضل بكثير من سلفه. لم يستقبله

أمير «العيينة» بالتشريف الذي يليق به فحسب، بل وجد «محمد بن عبدالوهاب» في الأمير طالباً ميالاً للتعلم ومستعداً لينهل من عمله، ولم يكن ليحظى بإطراء أكبر من الإطراء الذي حصل عليه من مجرد السلام على الشيخة «جوهرة» التي سبق أن تعرضنا لذكرها كضامن وكفيل لحسن تصرف ابن أخيها «خرفاش». وأصبح من الواضح أن «محمد ابن عبد الوهاب» قد بدأ الآن يرى ملامح النصر لقضية كرس حياته من أجلها دون عودة عنها، وأصبح يرى ذلك النصر على الصعيدين المادي والمعنوي. وفي أحد الأيام قال لعثمان: «إذا جاهدت في سبيل الواحد الأحد فسيأخذ الله بيدك ويمن عليك بمملكة نجد وعربها». وهكذا تمت الصفقة بين الأمير والداعية، وبدت المغامرة الكبيرة وأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نظام الحياة اليومية في العيينة. وانضم إلى الحركة الجديدة العديد من الناس المندفعين بحماسة ملحوظة.

لم يكن بالإمكان تجنب اختبار قوة واستقرار التركيبة الجديدة في ظل زخم الإجراءات التي لم تلقى استحسان العديد من الناس. قام أحد المأجورين بقطع بعض الأشجار التي كان بعض الجهلة يبجلونها ويعظمونها، وأنجز المأجور تلك المهمة بتكتم وحذر دون إثارة أي انفعال بين الناس. وبقيت هناك شجرة واحدة وهي الأكثر قدسية بالنسبة لهؤلاء الجهلاء وعليه قرر «محمد بن عبد الوهاب» أن يقطعها بنفسه، وعندما وصل إليها وجد راع جالس تحتها. قام الراعي ومنع «محمد» من الوصول إليها، إلا أن قطعة القماش التي قدمها محمد من ملابسه إلى ذلك الراعي هدأت من خاطره وترك «محمد» يعمل فأسه تقطيعاً بتلك الشجرة.

أصبحت سمعة «محمد بن عبد الوهاب» بالإخلاص والشجاعة تتسع، سرعان ما التحق به سبعون رجلاً بينهم العديد من أقوى رجال المنطقة، ومع ذلك بقي أمام «محمد بن عبد الوهاب» بعض العقبات الصعبة التي توجب عليه التغلب عليها. كان قبر «زيد بن عبد الوهاب» والمغطى بقبة والمبجل بالخرافات، غاية تستميل حماسة «محمد بن عبد الوهاب». حصل «محمد ابن عبد الوهاب» على إذن من «عثمان» لإزالة ذلك القبر. أصرّ «محمد بن عبد الوهاب» على عثمان أن يرافقه، وسار عثمان معه وبرفقته ستمائة رجل، واندفعت جموع الناس في «الجبيلة» لإيقافهم فما كان من عثمان إلا أن نشر قواته استعداداً للقتال. وعندما رأى القرويون ذلك تراجعوا، ولدى اقترابهم من المقام أو الضريح طلب «عثمان» ورجاله من «محمد بن عبدالوهاب» أن يعفيهم من هدم الضريح، فجاء «محمد بفأس وهدمه بنفسه.

توقع الناس الخرافيون البسطاء وهم على يقين أن مصيبة أو كارثة مروعة ستتم أثناء تلك الليلة بـ «محمد بن عبد الوهاب» العاق ومحطم الأصنام. لكن عندما استيقظ في صباح اليوم التالي وهو بكامل صحته مستعداً لأي شجار أو مناظرة، بدأ الناس يشكون في حقيقة خرافاتهم. تلى ذلك الحدث قصة المرأة التي زنت، وهي قصة مشهورة اشتملت على اختبار لاذع لجدية الواعظ «محمد بن عبد الوهاب»، وعلى ما يبدو تعمد أعداؤه أن يبرزوا ذلك الحدث على ذلك النحو. وكانت تلك قضية حياة أو موت بالنسبة للمرأة أيضاً، ولم يكن «محمد بن عبد الوهاب» ليقتل امرأة ما لم تتوفر لديه قناعة بأن تلك هي إرادة الله. جرب «محمد بن عبد الوهاب» كل وسيلة استنبطها من عمله بالشريعة الإسلامية لينقذ الزانية من الحكم، إلا أن المرأة

كررت اعترافها ولأكثر من مرة بخطيئتها ورفضت أن تغير أية كلمة من أقوالها واعترافاتها. أن عزيمة محمد لم تثنه عن الاستمرار في محنته وإصدار حكماً بالموت على المرأة، ونفذ الحكم ورجمت المرأة وأصبحت سمعة «محمد بن عبد الوهاب» تملأ الآفاق.

شاعت أخبار هذه المرحلة في كل مخيم وقرية في الصحراء مسببة قنوط في بعض الأماكن وتخمينات مثيرة في أماكن أخرى. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أمير الأحساء «سليمان بن غرير» الذي كان قد خلف أخوه «علي»، سارع في إبداء تحفزه وغضبه حيال تلك الأحداث، وأرسل رسالة إلى «عثمان» احتج فيها على تصرفات «محمد بن عبد الوهاب» باعتباره كان تحت حمايته. وطالب بقتله قصاصاً لإمساكه المخصصات السنوية من المؤن والأموال التي كان من عادته أن يوصلها إلي العيينة وإلى تجمعات أخرى في المناطق الداخلية. لا يمكن اعتبار مثل هذه المخصصات على أنها جزية بأي شكل من الأشكال، لكنها كانت بطبيعتها بمثابة تأمين يضمن حقوق تجار المناطق الساحلية في المتاجرة مع مناطق الداخل، وبمثابة حماية لهم من التحرش بهم والاعتداء عليهم. وقد بلغت مخصصات العيينة (١٢٠٠) قطعة ذهبية (أحمر) إضافة إلى كميات مماثلة من المواد الغذائية والأقمشة التي تباع بالقطعة أو بالمتر.

بالرغم من نواياه الطيبة تجاه الحركة الوهابية الجديدة لم يكن باستطاعة «عثمان» أن يضحي بتلك الثروة من الدخل، كما أنه لم يكن في وضع يمكنه من مقارمة هجوم يشنه عليه أمير بني خالد. تضافرت هذه الأمور وطغت على نيته الطيبة تجاه الحركة الجديدة وتجاه مؤسسها. وجاء رده على مزاعم

ضيفه على شكل جواب لاذع مفاده أن ليس لديه شيء يخاف عليه من أعدائه طالما أنه يخاف الله ويضع كل ثقته بالله. ولكن بعد المزيد من الجدل والتبريرات قرر «عثمان» أن يتخلص من ضيفه غير مبال بأبعاد الأمور التي سيتخذها القادة في الأحساء وكون «محمد بن عبد الوهاب» قد أعطي خيار مصيره فاختار الدرعية وأرسل إلى هنا برفقة «فريج» وفرسانه. سار «محمد» في أسفل الوادي جاراً قدميه، ولم يكن بيده سوى مروحة يلطف بها حرارة عصر ذلك اليوم الحار. كان لدى «فريج» على أي حال أوامر بقتل «محمد ابن عبد الوهاب» عند وصولهم غار «يعقوب» - وهو مكان يضم قبر أحد الدراويش المتدينين - فترة وبني له هناك قبراً ذا قبة. لكن شجاعة «فريج» خانته عند وصولهم إلى ذلك المكان وعاد راجعاً إلى العيينة مع أصحابه تاركا «محمد» يتابع طريقه بمفرده باتجاه الدرعية.

وصل «محمد بن عبد الوهاب» إلى هناك في منتصف النهار ونزل في ضيافة «محمد بن سويلم العريني» في الطرف العلوي من الواحة. ولم يكن من السهل تهدئة مخاوف مضيفه فأكد له أن الله سيبارك عملهم ويحميهم من غضب «محمد بن سعود». علم أصدقاؤه بوجوده في ديرتهم وقدموا سراً للسلام عليه والاستفادة من عمله، وبالتدريج بدأوا يدرسون الطرف والوسائل التي يمكن أن يؤمنوا بها حماية زعيمهم لضيفه. وأخيراً قرروا أن يستدرجوا عطف «موضي» زوجة «محمد بن سعود». أعلمت «موضي» زوجها بالموضوع وأقنعته بالثروة الهائلة التي يسرتها العناية الإلهية له، وعليه تقرر أن يقوم الأمير بزيارة الداعية الإسلامي سيراً على الأقدام ليتسنى للناس رؤية الحفاوة التي قوبل بها «محمد بن عبد الوهاب». واتفقوا أيضاً

على تشجيع الأمير في الترحاب بالداعية الذي كان يُنظر إليه على أنه صانع معجزات، ورحب به الأمير وقال له «أهلاً بك في ديرة خير من ديرتكم، وستحظى بكل التقدير والدعم من طرفنا». كان جواب الداعية (الذي يمكن أن نطلق عليه الآن اسم الشيخ): فلتطمئن بأن الله سيمن عليك بالعزة والكرامة لأن من يؤمن بالله وبدينه سيفوز بحكم هذه البلاد وشعبها: ذلك لأن الله هو الإله الواحد الذي دعت إليه كافة الرسل من أولهم إلى آخرهم». وإنه من المناسب هنا أن نذكر أسماء أهم الرسل الواردة أسمائهم في مقدمة ابن بشر والذين قادوا الأمم في كافة مراحل تطورها إلى فضل الله على عباده والمتجسدة في الدين الإسلامي، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويوسف، وموسى، وسليمان، وعيسى، ومحمد.

وهكذا التقى التحالف بين الأمير والشيخ في ذلك اليوم من عام ١٧٤٥، إلا أن «محمد بن سعود» طلب ضمانات من الشيخ تتعلق بنقطتين، إذ قال: أخشى إذا ساعدتكم وفزنا أنا وأنت بالعالم، ربما تتركني لتفتش عن مستقبلك في مكان آخر، وثانياً أن نظام بلدتي يعطيني الحق في نصيب من العائدات والمكاسب التي يحققها الرعية من الزراعة والتجارة وخلاف ذلك، فلن تطلب مني أن أمتنع عن جبي تلك العائدات! عندها أجاب الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» قائلاً: أما بالنسبة للموضوع الأول فلا اعتراض عندي عليه، ومن هذه اللحظة أضع يدي بيدك، وأما بخصوص الموضوع الثاني فلعل الله العزيز القدير يحقق لك انتصارات وفتوحات ويعوّض عليك بغنائم من الحروب أكثر بكثير من العائدات التي تحصل عليها

الآن. في تلك اللحظة شد الأمير على يدي الشيخ تبايعا بالولاء لدين الله ولرسوله، ووعد بأن يشن حرباً في سبيل الله.

في أعقاب ذلك انتقل الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» من منزل «محمد ابن سويلم» إلى أعد له خصيصاً في المدينة، وبدأ الناس يأتون أفواجاً لسماع خطبه كما أن العديد من مؤيديه القدامى من منطقة «العيينة» هاجروا إلى «الدرعية» ليستنشقوا عبير الطهارة، حتى «عثمان بن معمر» كفّر عن أعماله بعد أن شاهد ما حدث في العاصمة المنافسة له، وخشي على نفسه من تلك التطورات، فسار في موكب تسوده حالة التوتر والاهتياج ومعه عدد كبير من أمراء ووجهاء العيينة لزيارة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في منزله الجديد. وتوسلوا إليه بأن يعود معهم وعاهدوه بأن يعاملوه بشكل مشرف وأن يقدموا له الولاء في الدعم والمناصرة فكان جوابه: هذه المسألة ليست لي بل للأمير «محمد بن سعود» إذا رغب لي بأن أعود معكم عدت، لكن إذا أراد مني أن أبقى معه فسأبقى ولن أترك شخصاً صادقني من أجل صداقة شخص آخر. رحل «عثمان» إلى ديرته وهو مصاب بخيبة أمل.

أما بالنسبة للاجئين الذين تدفقوا إلى منطقة الدرعية فلم يحظوا بنتائج مادية يسعدوا بها لقاء المحاولة التي قاموا بها لتطهير أنفسهم والنجاة بها من النار. لم تكن الدرعية الولاية الفخمة التي كانت على أيام «ابن بشر» بل ضاقت مصادر خيراتها لدرجة أن من قدموا ليلتفوا حول الشيخ «محمد» وجدوا أنفسهم مضطرين للبحث عن عمل في الليل من أجل كسب عيش ضيل. وكانت قلعة «طريف» محجوزة لأمراء آل سعود وخدمهم. سكن الشيخ وسط أشجار نخيل الوادي في ضواحي «البحيري» وبذلك تحولت

إلى مركز فكري وثقافي للمدينة، كما انتشرت الأسواق المتعددة على أطراف القناة التي تتجمع فيها المياه. والجدير بالذكر أنه كان هناك أسواق للرجال وأسواق لا يدخلها سوى النساء.

وهكذا تم التجسيد الواقعي لحركة الإصلاح الدينية التي كان يمكن أن يصل تموجها إلى أقصى حدود الصحراء العربية حتى إلى ما وراء تلك الحدود، كانت حلقات الدروس الدينية للشيخ «محمد بن عبد الوهاب» للأمير ولعامة الشعب على حد سواء، إذ كانوا جميعاً بحاجة إلى روحانية بسبب القنوط الذي عانى منه العرب خلال سنوات الجهل والإهمال. كانت الآثام عظام وكانت البسيطة منها سائدة في الأوساط الغنية والفقيرة على حد سواء: أهمل الناس الصلاة أو كان بعضهم يؤديها لكن بشكل روتيني ميكانيكي يفتقر إلى الحماسة؛ وكما توقف الناس منذ زمن طويل عن دفع الزكاة وتحول جمعها إلى عملية إجبارية.

كرس الشيخ جهده ونفسه لمعالجة هذه الأمور - بدأ بذلك - على صعيد نطاق كافة الإمارة، وبعد ذلك امتد نشاطه ليشمل مناطق وراء ذلك النطاق. ولم يلجأ الشيخ إلى القوة بل لجأ إلى أسلوب الإقناع. كان ينقصه المال فلجأ إلى الاقتراض وقدم له عن طيب خاطر ليساعد طلبته على الاستمرار في تحصيل العلم. ويقال إنه عند الاستيلاء على مدينة الرياض بعد عدة سنوات لاحقة، بلغ الدين المترتب عليه أربعون ألف محمدية، وذلك مبلغ كبير بالمقياس المالي لتلك الأيام. لكن تم تحصيل كل ديونه من حصته من الغنائم التي حصلوا عليها بعد ضم الرياض، وكذلك من حصته من الإتاوت التي كانت الدولة تجمعها.

في تلك المرحلة أصبحت فكرة الجهاد المقدس راسخة بحق في أذهان طلبته، إذ وجد العديد من طلابه أن فكرة الجهاد المقدس هي الجزء المستساغ في تعاليمه ونظراً لأنها كانت متمشية مع الممارسات الطبيعية للناس. تُقتطع خمس الغنائم لصالح الخزينة المركزية والتي كان الأمير والشيخ يستمدان مصروفاتهما منها لتغطية نفقاتهما ونفقات أعمال أخرى معينة. واستمر الأمير والشيخ يعملان بانسجام ووفاق تأمين وكأنهما روح في جسدين، ويقال إن الأمير «محمد بن سعود» وابنه وخليفته الأمير «عبد العزيز» لم يقدما على أي مشروع أو قرار دون موافقة ومباركة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». فلا يمكن أن يوجد أي مثيل لهذا الانسجام الذي دام على مدى نصف قرن، وإن وجد فإنه نادر. ومرت مكانة الشيخ في شؤون الدولة على ذلك النحو لمدة عام أو عامين، وعليه يجب - على الأقل - النظر للشيخ على أنه الشخصية التعاونية المؤسسة لتلك الدولة.

وعندما بدأ نمو الدولة يلقي بأعباء ثقيلة على كاهليه الآخذين في الكبر، نقل الشيخ مسؤولية تنفيذ الأمور السياسية والإدارة والمالية إلى الأمير «عبدالعزيز» الذي استمر في مشاورته في كاقة القضايا.

بإمكاننا الآن أن نستعرض الوضع في نجد بعد أن ظهرت به في عام ١٧٤٥ حكومة جديدة. كما أشرنا سابقاً ظهر حاكمان جديدان أتيا إلى السلطة خلال الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، وهما بالتحديد «سليمان ابن محمد بن غرير» الذي كان حاكماً على الأحساء و«عثمان بن حمد بن معمر» الذي كان على العيينة.

والجدير بالذكر أن المنافسين الرئيسيين للدولة السعودية كانتا « الأحساء» و«العيينة» . وقد شهدت الفترة نفسها وبالتحديد على الجانب الجنوبي من الدرعية ظهور قوة جديدة سبق أن كانت تتململ على مدى بضع سنوات لتشكل أقوى عدو للدولة السعودية . وهنا لا بد أن نعود إلى الوراء قليلاً لنستعرض تعاظم أملاك الرياض، فتبدأ القصة بالواقع عام ١٦٨٢ في منطقة «منفوحة» عندما أقدم «دواس بن عبد الله بن شعلان» زعيم المدينة على ذبح زوار من عائلة «الجلاجل» قدموا إلى «منفوحة» من «سدير» لكن التاريخ الدقيق لهذه الحادثة غير متوافر لدينا؛ إلا أن تسلسل مجريات الأحداث واضحاً تماماً . وعندما مات «دواس» عام ١٧٢٦ خلفه ابنه «محمد» وهو الأكبر بين ستة من أبنائه . واجه «محمد» تحديات من قبل ابن عمه اللزم «عبد الله بن فارس» الذي تمكن من ذبحه ونفي كل إخوانه من منطقة «منفوحة» واستولى بنفسه على الزعامة فيها، ولجأ الإخوة الخمسة بما فيهم «دهام» إلى الرياض واحتموا فيها، وكانت الرياض في وقتها تحت حكم شخص يدعى «زيد بن موسى» . قريت شوكة الإخوة في المنفى (الرياض) . وحدث أن أقدم عبد يدعى «خميس» على قتل «زيد» واغتصب حكم الرياض لمدة ثلاث سنوات حدث في نهاية تلك الفترة أن أصيب بذعر بسبب إشاعة مفادها أن هناك ثمة خطة للإطاحة به، أدى به ذلك الذعر للهروب إلى منطقة «منفوحة» وهناك نفذ به حكم الإعدام . ولأن كرسي الحكم في الرياض أصبح شاغراً تولى «دهام بن دواس» الذي كانت أخته أرملة «زيد بن موسى» الحكم على المدينة بصفته الوصي على العرش نيابة عن ابن «زيد» الذي كان قاصر السن . وعندما استقر في الحكم وثبت أقدامه نفي الصبي

عن الرياض واغتصب الحكم والزعامة. وأمام حكم «دواس» الطويل لـ «منفوحة» – الذي لا نعرف متى بدأ بل نعرف فقط بأنه انتهى مع حكم خلفه «محمد» في عام ١٧٢٦ – ليس لدينا أي خيار إلا أن نرقب التطورات التي تحدثنا عنها أعلاه على مدى الأعوام ما بين ١٧٢٦ و ١٧٤٠. والمعلوم لدينا أن «دهام» مكّن نفسه في الحكم عام ١٧٤٠، وفي أقصر الاحتمالات يمكن القول أن فترة حكمه بدأت في حوالي عام ١٧٤٠.

ليس هناك سجلات تاريخية تدل على وقوع أي أعمال عدائية بين الرياض والدرعية خلال الفترة التي سبقت دخول الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» إلى الرياض. لكن حدث في بداية عام ١٧٤٦ أن قام «دهام» ومواطنون من الرياض تدعمهم فرقة من بدو « الظفير» بمهاجمة منفوحة. وهناك دار قتال شرس أسفر عن إصابات في كلا الطرفين دون تحقيق أي مكاسب لأي فريق. وقد استمر القتال إلى أن وصلت قوة إنقاذ من الدرعية بقيادة «عبد الله» ابن زعيم الدرعية. ولأن المهاجمين وقعوا وسط الاشتباكات الدائرة بين المواطنين وبين قوة الأنقاذ، حاولوا شق طريقهم واختراق صفوف قوة الإنقاذ. أصيب «دهام» في تلك الحادثة بجراح مرتين إلا أن حصانة أصيب بضربة قاتلة.

أصبح الآن «علي بن مزروع» – الذي يفترض أنه خلف «عبد الله بن فارس» في زعامة منفوحة – الحليف الطبيعي لابن سعود في نضاله الطويل الهادف لإخضاع زعيم الرياض. وسرعان ما استؤنفت الأعمال العدائية بين الطرفين مباشرة بعد حادثة منفوحة. أرسل «ابن سعود» قوة تحت جنح الظلام ليشق من خلالها طريقه إلى داخل منفوحة. وكانت في ذلك الوقت

تقع إلى الغرب من مدينة الرياض على تلة خلف حزام النخيل. نجح المهاجمون في الدخول إلى منزل «ناصر بن معمر» ومنزل «تركي» أخو «دهام»، لكنهم لم يتمكنوا سوى من أخذ عدد محدود من الجمال. بادر «دهام» في تلك الفترة إلى مهاجمة «العمارية» باعتبار أن زعيمها كان قد قتل وإن كانت جمالها مربوطة الأرجل (معقولة). وعند سماعه بهذا الخبر سارع «محمد» على عجل ونصب كمين للغزاة العائدين ورتب لشن هجوم عليهم من أحد أطراف الوادي. علم «دهام» بنوايا «محمد» وقرر أن يكمن له على الطريق إلى هناك، وحدث أن اختار «دهام» نفس المنطقة التي اختارها «محمد» لنصب فخه، وكانت النتيجة أن وقعت معركة حامية سقط فيها رجال من الطرفين. وسرعان ما وقع بعد هذه الحادثة حادث آخر يعرف باسم «معركة الشيبان». دارت تلك الواقعة بجوار الرياض التي سار إليها «محمد بن سعود» وبصحبته «عثمان بن معمر» الذي كان قد انضم إلى تحالف الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وحكم الدرعية. وعندما وصلوا إلى الموقع المحدد قسموا القوات إلى مجموعتين: كان مقرر لإحداهما أن تهاجم أطراف الرياض في حين كان مقرر للثانية أن تبقى في مكانها لتتصدى لأي هجوم مفاجئ يمكن أن يقوم به المواطنون لحماية ممتلكاتهم. حدثت المعركة الرئيسية حول هضبة الوشام بالقرب من المدينة؛ وكما هي العادة أدى هجوم المرابطون من مكانهم إلى إجبار «دهام» ورجاله على الهرب للنجاة بحياتهم. ولأنه كان من بين القتلى رجلين كبيرين في السن سميت المعركة «بالشّياب» نسبة لكبر سنهما.

كانت تقريباً معركة العبيد نسخة متكررة عن هذه المرحلة باستثناء واحد هو أن معظم القتلى في الجانب المدافع عن الرياض كانوا من العبيد. حدثت هذه الاشتراكات في حوالي نهاية عام ١٧٤٦، وفي أوائل العام التالي نقل «دهام» الحرب إلى الأراضي الوهابية، ولم ينسى أن يكرر التكتيك المألوف في نصب الكمائن.

اندفع سكان الدرعية بأعداد كبيرة شبيهة بأسراب الجراد للتصدي للغزاة الذين فروا في حالة اختلط فيها الحابل بالنابل قاصدين بذلك أن يوصلوا أهالي الدرعية إلى موقع الفخ. وحدثت النتيجة المألوفة لكنها جاءت على نحو مختلف تماماً، إذ قتل فيها اثنان من أبناء «محمد بن سعود» هما «فيصل» و «سعود». ورداً على ذلك شن «محمد» حملة مضادة على الرياض تدعمه قوات من «منفوحة» و «حريملاء» اللتان كانتا قد انضمتا إلى التحالف مع السعوديين. لم تشارك في تلك الحملة أية قوات من «العيينة». ولسوء حظه أن خائناً (كان بين صفوف قوات حريملاء) تسلل وذهب ليحذر «دهام» من الهجوم المعد ضده عند الفجر. ولعدم علمه بذلك شرع «محمد» في هجومه لكنه وجد المدافعين منتبهين ويقظين بشكل تام، ومن الصعب في مثل هذه الظروف اتخاذ أي قرارات، وانتهت تلك المعركة التي عرفت باسم «الدلقة» أو «الشراك» بالتراجع وسقوط العديد من الجرحى والقتلى في صفوف كلا الجانبين.

تجدد القتال مرة ثانية في العام التالي ١٧٤٨ إذ قاد «عثمان بن معمر» جيشاً ضم قوات من «الدرعية» و «العيينة» وقوات من «حريملاء» و«ضرما» وجميعها كانت قد دخلت في التحالف السعودي.

قاد «محمد بن عبد العزيز» قوات الدرعية وعمل تحت قيادة «عثمان» العليا. والجدير بالذكر هنا أن «محمد» قبل تلك الفترة بقليل كان قد تزوج من ابنة «عثمان». شن الهجوم الأول ضد «السيح» و «مقرن» وهما من ضواحي الرياض، وأوشكت القوات المهاجمة أن تستولي عليهما لولا أن نجدة قدمت من الرياض وأعادت التوازن.

قاتل الطرفان بضراوة إلا أن المتدينين الوهابيين أجبروا على التراجع في تلك المعركة التي عرفت باسم «البنية»، تاركين وراءهم خمسة وأربعين قتيلاً من قتلاهم وأغلبهم من فرقة «حريملاء». تكرر في نفس العام الهجوم بنفس القوة والشكل، لكن بدأ هذه المرة ضد منطقة «خريزة» المجاورة لمنطقة «السياح»، ولم يحقق نتائج تذكر. كان القائد في ذلك الهجوم «عثمان» وكان «عبد العزيز» تحت إمرته وكانت نفس التشكيلات العسكرية مسؤولة عن الحملة التي أرسلها «محمد» ضد «ثرمدا» في إقليم «الوشم». ونصب الفخ بالطريقة نفسها وألحقت الهزيمة النكراء بجماعة أهل المدينة الذين قدموا للقتال، حيث قتل منهم ما لا يقل عن سبعين رجلاً واختبأ الباقون في مزرعة فيها بيوت صغيرة تقع خارج البلدة. أصبحت هذه المزرعة بدون مدافعين فاندفع «عبد العزيز» لاحتلالها، إلا أن «عثمان» رفض السماح له بذلك وعليه أتهم بعدم ولائه للقضية. نقل عبدالعزيز» تصرف «عثمان» هذا إلى «محمد بن سعود» وإلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لكنهما على ما يبدو لم يتخذا أي تصرف من شأنه أن يصعد الموقف نظراً لأن «عثمان»، وفي أواخر ذلك العام ترأس حملة صغيرة وتوجه بها مرة ثانية إلى «ثرمدا»، ومنها توجه نحو «ثادق» وهناك قتل عدد قليل من الناس وأخذ بعض الخراف.

وفي عام ١٧٤٩ ترأس «محمد» بنفسه حملة ثانية قصد بها الرياض، وهاجم عند الفجر منطقة تعرف بـ «الحبونية» لكنه وجد أن السكان في ذلك الوقت كانوا مستعدين للقتال، وهناك تم تبادل العيارات النارية على مجال محدود، ووقعت بعض الإصابات. شهدت الأشهر الأولى من ذلك العام موجة برد قارس ألحق ضرراً بالغاً بالمحاصيل، وكانت بادرة قدوم أيام عجاف تعاقبت على تاريخ الصحراء العربية مراراً وتكراراً.

حدث في نهاية ذلك العام أيضاً أن اجتجز «مسعود بن سعيد» أمير مكة حجاج «نجد»، ويقال إنه حجر عليهم في المحاجر الصحية وهناك مات الكثير منهم. بلغت في عام ١٧٥٠ الشكوك الخاصة بسلوك «عثمان بن معمر» الشرس مرحلة الذروة، وعقب صلاة الظهر من يوم الجمعة في شهر حزيران تم اغتيال «عثمان بن معمر» في الجامع الكبير بالعيينة: زعم بأن «عثمان» كان يجري مراسلات اتسمت بالخيانة مع «محمد بن عفالق» حاكم الأحساء. وبموجب تلك المراسلات تم التفاهم بين الاثنين على أن يتنصل «عثمان» من ولائه إلى الدولة السعودية وأن يتخذ إجراءات تضر بمصالحها. نفذت عملية الاغتيال تلك مجموعة من «العيينة» متعاطفة مع «محمد بن عبد الوهاب» والتي أسفت لرحيله عنها، وحُمّل «عثمان» وحده المسؤولية عن ذلك، وحسب رأي «ابن بشر» القائل بأنه «لا محاباة في الدين والدين لا يعصم المخطئين»، ونظرت الناس إلى عملية قتل أبو زوجة وريث عرش الدرعية الدرعية (الذي لم يبلغ ابنه آنذاك سوى عامين) على أنه إجراء جدير بالإطراء.

وفي العام نفسه قاد «محمد بن سعود» جيشه شخصياً في هجوم آخر ضد الرياض لكن لم تعرف نتيجته. وحدثت مجابهة بين رجال «محمد بن سعود» وفريق مدافع بالقرب من بئر «مروة» على قناة، وأطلق على تلك المجابهة اسم «البطيحة» أيضاً. تزامن مع هذه الحملة أن قام زعيم «العيينة» الجديد «مشاري بن إبراهيم بن معمر» ابن عم «عثمان» اللزم، بحملة أخرى كرر من خلالها الهجوم على «ثرمدا»، ورافقه في تلك الحملة «عبد العزيز» على رأس فرقة من الدرعية. ولكون سكان «ثرمدا» على علم سابق بتلك الغزوة، تمكنوا من جلب تعزيزات من «اثيثيه» ومن «مرات» المجاورين. وكان خطأهم أن خرجوا إلى العراء لقتال الوهابيين: ونفذ الكمين المعد لهم وحقق بعض النجاح الذي تجلى في إجبارهم على التقهقر إلى قريتهم. قام الغزاة في اللحظات الأخيرة وقبل العودة إلى ديارهم محملين بغنائم الحرب بسلب المزيد من خيرات القرية. وسقط في تلك المعركة «علي بن زامل» زعيم «العيينة» وعرفت تلك المعركة باسم «الوطية».

شن الوهابيون في نهاية العام أو في بداية عام ١٧٥١ هجوما آخراً على الرياض ومُنيوا بنكسة، علماً بأنهم تمكنوا من الوصول إلى منطقة «العودة» جنوب شرق الرياض لكنهم لقوا مقاومة عنيدة وصعبة تكبدوا فيها بعض القتلى وكان من بينهم «علي بن عيسى الدرع» وهو من أنساب آل سعود.

كان حديث الساعة في بداية عام ١٧٥١ هو ارتداد «ضرمة» عن الدعوة السلفية وكذلك ارتداد أحد الأفخاذ ذات النسب البعيد للأسرة المالكة. وكان ذلك الفخذ هو الفرع الأكبر الذي هاجر من «الدرعية» إلى «ضرمة» مع «عبد الرحمن بن إبراهيم» وهو الجد الثالث لـ «محمد بن سعود».

حدث في عام ١٦٨٤ أن قتل «محمد بن عبد الرحمن» على إثر مشكلات دينية بسيطة حدثت مع جيرانه، وأصبح على أحسن تقدير حفيدة «إبراهيم» (وليس ابنه كما ذكر ابن بشر)، حاملاً الراية مجابهة الحركة الوهابية، فقام بإعدام العديد من أشهر المؤيدين لتلك الحركة في منطقته بما فيهم «راشد العزازي» الذي تربطه عن طريق المصاهرة علاقة بفرع عائلة السيف التي أصبح في تلك الفترة بعض أفرادها يبحثون عن فرص للأخذ بالثأر. وبعد مضي بضعة أشهر فاجأوه في أحد الجوامع وذبحوه كما ذبحوا اثنين من أبنائه هم «هبدان» و«سلطان»، وعليه تم القضاء على هذا الفرع من الأسرة. وأثناء زيارة «عبد العزيز» إلى ضرما بينما كان في طريقه لغزو «الزلفي» أصدر أمراً بتعيين «عبد الله بن عبد الرحمن» (المريضي) أميراً جديداً عليها.

شهد شتاء عام ١٧٥١ عودة الخيرات بعد الجفاف والتلف الذي أصاب المحصول. وفي العام التالي قام «فيصل بن صويط» على رأس قوات متحالفة من «سدير» و«المنيخ» و «الزلفي» وأهالي «الوشم» بالهجوم على واحة «الرغبة» ودمروها دون هوادة، وشارك في ذلك الهجوم فريق كبير من «الظفير». ويقال: إن «فيصل بن الصويط» هو حفيد «سلمة» الذي سبق أن قلنا بأنه مات في عام ١٧٠١ علماً بأنه لا تتوافر أية معلومات عن الشخصية التي خلفته في الزعامة.

شهد العام نفسه موت الشيخ «محمد حياة السندي» الذي أشرنا إليه كواحد من الأساتذة الذين تتلمذ «محمد بن عبد الوهاب» على أيديهم خلال فترة إقامته المؤقتة في المدينة.

انحصرت الحملات العسكرية الوهابية خلال ذلك العام ضمن إطار ضيق، وتجلت في غارة بسيطة على الدلم وهي عاصمة الخرج، وانتهت باشتباك حدث ضمن قطاع العفجة(*) من وادي حنيفة. ذهبت محاولات أهالي الدلم في استرداد أغنامهم وإبلهم التي تم الاستيلاء عليها أدراج الرياح. وحدث هجوم صغير آخر على مخيمات البدو في «الدهيمان» لكنه ليس جدير بالاهتمام. لكن في وقت لاحق من ذلك العام أصبح لدى الوهابيين شيء مهم يستدعي أن يفكروا به، يبدو أن إجراءات التقشف بسبب التوزيع الجديد للمؤن قد أرهق «حريملاء» التي كان قاضيها آنذاك هو «سليمان» أخو الشيخ «محمد»، ولذلك انتفض الأهالي هناك ضد أميرهم «محمد بن عبد الله بن مبارك» وخلعوه وطردوه من بينهم وطلبوا من عمه «عدوان» وابنه «مبارك» كما طلبوا من أخيه «عثمان بن عبد الله » إضافة إلى كبار شخصيات البلد الرحيل معه والعيش كمنفيين في «الدرعية». وبعد فترة وجيزة اتخذوا قراراً غير حكيم وعادوا بناءً على دعوة وبموجب ضمانات وتطمين صدر عن أقاربهم من سلالة «آل حمد» في «حريملاء»، لكن سرعان ما جوبهوا بتحديات من قبل جماعة «الراشد» الذين انقضوا عليهم لسبب ما وقتلوا الأمير المخلوع «محمد» ومعه ثمانية من أتباعه. لكن «مبارك بن عدوان» نجا بحياته لتمكنه من الهرب إلى «الدرعية». وفي العام التالي انضم «مبارك» إلى «عبد العزيز بن محمد» في حملة تأديبية ضد أهالي «حريملاء». حدث خلال تلك الحملة قتال ضار وافقته أعمال سلب وتخريب للمحاصيل وواحات النخيل، دون أن يتحقق أي تقدم ملموس في إلحاق الهزيمة برجال القبائل المتمردين.

(*) تقع في منطقة الرياض بالقرب من وادي حنيفة.

قررت «منفوحة» في هذه المرحلة أن تنفصل عن التحالف الوهابي الديني وأن تعد العدة لمحاربته. وحدث في تلك الفترة أيضا أنه تم وبالقوة إحباط محاولة اللاجئين بالعودة إلى ديارهم وسط الظروف المتغيرة. أحبطت تلك المحاولة بالرغم من مساعدة أصدقائهم من «سدير» و«الوشم» والأقاليم الجنوبية. لم يتمكن الأمير على ما يبدو من إقناع الناس باعتناق الدعوة السلفية، وعلى العموم كان ذلك العام عام تراجع وتقهقر بالنسبة للدولة السعودية. تمخضت المشكلات التي كانت تعاني منها آنذاك جماعة «بني خالد» عن مولد شخصية بارزة على الساحة قدر لها على مدى السنوات التالية أن تكون شوكة في خاصرة الحكم الوهابي. فقد انتفضت جماعة «المهاشير» من القبيلة ضد «سليمان» الذي لجأ إلى «الخرج» طالباً النجاة. لكن «سليمان» مات هناك بعد فترة وجيزة من وصوله وخلفه في الزعامة «عريعر ين دجين» الذي احتفل بتسلمه السلطة بأن قتل «زعير بن عثمان» المنافس المحتمل له. و«زعير» هو الحفيد الثاني لـ «عريعر»، لكن فيما بعد ثار رجل ضده يدعي «حمادة» من جماعة «بني خالد» (ليس لسلالته ذكر في المصادر التاريخية). نجح حمادة في إجبار عريعر على النزوح عن المنطقة. لكن جماعة «حريملاء» شجعت عريعر على العودة. وفعلاً عاد «عريعر» وأجبر «حمادة» على الفرار باتجاه الشمال بدلاً من مجابهة حركة «عريعر» وأجبر «حمادة» على الفرار باتجاه الشمال بدلاً من مجابهة حركة كانت تتشكل وتختمر ضده. أصبح بإمكان عريعر الآن أن يعمل على تقوية مركزه. وفي تلك المرحلة قام أحد أبناء عمه ويدعى «عبد الله بن تركي» وهو ابن أخ سعدون الكبير بغزو «بني ظفير» في السبلة بالقرب من الزلفي،

وتمكن من دحرهم بسهولة وسلب كل أموالهم. والجدير بالذكر هنا أن «عريعر» هو ابن «دُجين» وعليه فهو يكون حفيد «سعدون».

بالرغم من فترة الراحة الطويلة من القتال ومن حقيقة أن الحركة التصحيحية كانت تمر بصعوبات جمة، إلا أن «دهام» بدأ يتعب من مقارعة الأحداث غير المواتية التي صمد أمامها حتى ذلك التاريخ، وفي نهاية عام ١٧٥٣ أو بداية العام التالي قرر أن ينضم إلى التحالف فأرسل رسولاً إلى «الدرعية» وحمله هدية فخمة تشتمل على الخيول والأسلحة كانت غايته منها أن يصل إلى هدفه وأن يؤكد لـ «محمد بن سعود» على ولائه له وللعقيدة الدينية التي أسهم في إنجاحها وازدهارها. هذا وطلب من «محمد بن سعود» أيضاً أن يرسل إلى الرياض مدرسي دين. واختار الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لهذا الغرض رجل يدعى «عيسى بن قاسم».

وهكذا دخلت الرياض في المجموعة الدينية وحل السلام لفترة من الزمن، وأثناء ذلك كانت «ضرما» تواجه موجة من المشكلات المتزايدة بسبب مقتل أربعة إخوة من عائلة «السياري» وهي فرع من سلالة «سيف بن إبراهيم» على أيدي الأمير الجديد «محمد بن عبد الله» (المريضي؟) الذي كان من المتزمتين الوهابيين وأحد أفراد أسرة «عبد الرحمن» المنتمية إلى الأسرة نفسها التي قضى أبناء عمومتهم من أسرة السيف على كل أفراد أسرتهم عندما ثاروا قبل بضع سنوات ضد الأمير «إبراهيم» وقتلوه مع اثنين من أبنائه. يبدو أنه لم يعد بالإمكان ضبط أبناء عم السيف بعد مأثرهم في قتل الأمير الحاكم، وأصبحوا يعربون جهراً عن معارضتهم للدعوة السلفية، بل أصبحوا يستبدون بالناس ويزدرون بالحكم القائم.

رفع الأمير هذا الوضع إلى السلطة في «الدرعية» وتدارس الشيح «محمد ابن عبد الوهاب» مع الأمير «محمد بن سعود» هذه المسألة وقررا أن تطلق يد الأمير في هذه المسألة وأن يتصرف حال حدوث مشكلات جادة أو خطر حسب ما يراه مناسباً. وهكذا تشاور الأمير مع وجهاء البلد واتفقوا على اتخاذ إجراء يقطع دابر أعمال التحريض على الفتنة والعصيان بشكل نهائي. لكن حدث أن قام شخص من عائلة «الغفيلي» في شهر تشرين الثاني من العام نفسه، (كانت تربطه بطريقة ما علاقة مع عائلة «السيف»)، بمساعدة أمير «ثرمدا» المدعو «إبراهيم بن سليمان». هذا وقدم العون أيضا لجماعة «مرات» الذين كانوا يحاولون ضرب الدولة السعودية في «ضرما». شعر أمير «ضرما» بتلك الخطة فأرسل يطلب المساعدة من «الدرعية». ومن هناك انطلق منها «محمد بن سعود» لنجدته، وتزامن وصوله إلى «ضرمة» في الوقت الذي وصل فيه أصدقاء «الغفيلي» قادمين من الوشم. دار بين الطرفين اشتباك منيت جماعة «الغفيلي» على إثره بهزيمة نكراء وسقط منهم حوالي ستين رجلاً.

ركز «محمد بن سعود» في تلك الفترة اهتمامه على «حريملاء» وأرسل إليها في أوائل عام ١٧٥٥ «عبد العزيز» على رأس قوة من ٨٠٠ رجل. وصل «عبد العزيز» إلى هناك ليلاً وعسكر إلى الشرق من إحدى الواحات هناك ونشر قواته مشكلاً كمائن مزدوجة أشرف «عبد العزيز» بنفسه على كمين في شعب «عويجة» في حين كمن «مبارك بن عدوان» ومعه ٢٠٠ رجل في «الجزيع».

وفي الفجر زحفت القوة الرئيسية على المدينة التي خرج رجالها للقتال. فلم يكن انضمام الكمين الأول إلى المعركة كافياً لترجيح كفة المعركة، إلا أن قدوم الكمين الثاني الذي التف عليهم ليعزلهم عن المدينة شكل ثقلاً لم يكن بإمكان المدافعين الصمود أمامه، وتحول انسحابهم إلى حالة فوضى إذ سارع السكان إلى الاحتماء بأشجار النخيل وبأسوار الواحة، وسقط منهم أثناء سير المعركة حوالي مائة رجل. ولسبب ما توجه «عبد العزيز» إلى «الدرعية» تاركاً القادة المعاونين له يشرفون على سير القتال. وبعد مغادرته بقليل قام أحد هؤلاء القادة المساعدين وتمكنوا من دخول المدينة واحتلها بشكل فعلي. وعلى الفور رجع «عبد العزيز» ليشرف بنفسه على الوضع هناك وأعلن حماية وسلامة كل رجل ذا نوايا طيبة باستثناء أفراد جماعة الراشد لأنهم كانوا قد اقترفوا الجرائم وانتهكوا القانون المدني. سمح للوهابيين المنتصرين بسلب ونهب المنازل وواحات النخيل، وتم تعيين «مبارك بن عدوان» أميراً ليخلف ابن عمه المقتول، وتم استرداد «حريملاء» لنصرة الدعوة السلفية وحركتها في الرابع عشر من شهر آذار من عام ١٧٥٥. وفي ذروة الانتفاضة فر القاضي «سليمان بن عبد الوهاب» من ذلك المكان سيراً على الأقدام ووصل بسلام إلى «سدير».

وفي الرياض سرعان ما كان «دهام» قلقاً من السلام. كما تعب من مشكلات الحرب، وفي ذلك العام بادر بجولة ثانية من القتال ضد «الدرعية»، وساعده هذه المرة «محمد بن عبد الله بن فارس» الذي كان في وقتها أميراً على منطقة «منفوحة»، كما ساعده أيضاً «إبراهيم بن سليمان» زعيم «ثرمدا» الذي جمع حوله كل الساخطين على النظام من مناطق الوشم

وسدير وثادق وحريملاء. كما جمع حوله كل الأعداء الرئيسيين للدولة الناشئة، وكان أول أهداف هذا التحالف هو استرداد «حريملاء» من الحكم السعودي. ومن أجل تحقيق هذه الغاية تجمعت القوات التي تحت إمرتهم في قرية «الحسيان» وهو مصدر ماء في المنافذ العليا لوادي «حريملاء». شن «مبارك بن عدوان» بما لديه من قوات جاهزة في تلك اللحظة هجوماً مضاداً واستمر في مناوشتهم إلى أن وصلت التعزيزات من «الدرعية». وعند رؤية هذه التعزيزات انهارت قوات المتحالفين وأصيبوا بالذعر واختبأ بعض منهم في بيوت القرية ومكث بعضهم فيها لمدة خمسة أيام استطاع بعضهم خلال تلك الأيام الهرب تحت جنح الظلام في حين لاقى البعض الآخر حتفه. كان زعيم «ثادق» والمدعو «ساري بن يحيى» من بين الذين تمكنوا من الهرب. بلغت خسائر المتحالفين في هذه المعركة والتي أطلق عليها اسم «معركة الدار» ستون قتيلاً، ويقال إنها حدثت إما في شهر آب أو في شهر أيلول من عام ١٧٥٥.

كان العام التالي عاماً هادئاً نسبياً باستثناء هجوم بسيط قام به «عبد العزيز» على «منفوحة» أما الحدث الآخر فكان قدوم وفد من قرية «القويعية» في مرتفعات «العارض» لزيارة أمير الدرعية والشيخ «محمد بن عبد الوهاب»، وهناك أعربوا عن ولائهم لسلطة الدرعية.

شهد ذلك العام أمطار خير ومحاصيل وافرة ومراع خصبة لعبت جميعها دوراً في خفض عدد الغزوات والحروب، لكن شتاء عام ١٧٥٦/ ١٧٥٧ شهد معاودة الهجمات والغزوات، والتي بدأت بمعركة «سد الرشا» الذي

كان يحول مياه الفيضانات من وادي حنيفة إلى واحات النخيل في «منفوحة». وكان ذلك السد هدفاً استراتيجياً لـ «عبد العزيز» وعليه قام باحتلال بعض المنازل في حزام النخيل وشرع في تدمير السد الذي كان مبني من حجارة كبيرة مدعمة بمعاقل وحصون مستديرة الشكل بين مسافات محددة. وبينما كان منصب على هذا العمل قام «دهام» قادماً من الرياض بهجوم عليه ونشب قتال شرس مات فيه عشرة من الوهابيين وثلاثة من خصومهم.

قامت الآن جماعة من الوشم بزيادة زمام المنافسة. اشتملت منطقة الوشم على العاصمة «شقراء» التي كانت المركز الوحيد لثقل الدعوة السلفية. وكانت تلك الجماعة أول جماعة في «نجد» (طبعاً باستثناء الدرعية والعيينة» على المبادئ الجديدة. ولأن المناطق الأخرى الأقل عدداً من حيث السكان كانت معادية جداً للدولة السعودية فقد طلبت إمدادات ومساعدات من «سدير» و«منيخ» ليتمكنوا بها من غزو «شقراء». أسفر هجوم قام به فريق من «منيخ» عن صدام كانت نتائجه بشكل إجمالي لصالح المدافعين الذين غنموا بعض الخيول والجمال من أعدائهم. وفي هذه المرحلة خرج «عبد العزيز» من الدرعية ليشارك في النزاع، وفي الجولة الجديدة من القتال حقق رجال الدرعية الذين خرجوا - كالعادة - من مكانهم نتيجة حاسماً، وتراجع المتحالفون إلى «القراين» التي تبعد بضعة أميال عن العاصمة، وبلغت خسائرهم في ذلك الاشتباك سبعة عشر قتيلاً من بينهم وجهاء من منطقة «سدير». وبعد أن صد «عبد العزيز» الخطر عن «شقراء» عاد إلى الدرعية وبينما هو في الطريق هاجمه فريق من بدو «سبيع» بالقرب من آبار «الحسي» الواقعة على ممر الحيسية المؤدي إلى سهول «طويق». تمكن «عبد

العزيز» من هزيمة البدو وأسر زعيمهم «ابن فايز المليحي» الذي حرر نفسه بدفع فدية بلغت ٥٠٠ قطعة ذهبية.

في هذه المرحلة هاجم «عبد العزيز» الرياض، إذ قام تحت جنح الظلام بنصب كمين خارج البوابة الغربية، ولهذا السبب حظي ذلك الهجوم باسم «باب القبلي» وكانت تلك المعركة وإلى حد كبير مثل سابقاتها، إذ منيت جماعة الرياض ببعض الخسائر بسبب ذلك الكمين. في تلك الأثناء كان أمير ضرما «محمد بن عبد الله» في طريقه لمهاجمة الوشم، إلا أنه تعرض لهجوم شنه عليه فريق مغير من «صمدا» و«الظفير». لم يستطع أمير «ضرما» أن يصمد لفترة طويلة وسرعان ما هرب. تابع عبد العزيز طريقه بالتقدم نحو الوشم، وهاجم قرية «أشيقر» ومن هناك اتجه نحو «ثادق» التي حاصرها لبضعة أيام والحق خسائر كبيرة في المناطق المحيطة بها، وبعد وقوع بعض الإصابات في صفوف كلا الطرفين وكان «محمد بن دغيثر» من المصابين من جانب الجيش السعودي، سعى الناس من أجل السلام معلنين عن استعدادهم لقبول الدعوة السلفية وقبول سلطة «ابن سعود». عُيّن في تلك الفترة «دخيل بن عبد الله بن سويلم» (وهو ابن عم أول شخص استقبل «محمد بن عبد الوهاب» في الدرعية) أميراً على «ثادق» وعُيّن شخص آخر من العائلة نفسها في منصب القاضي ويدعى «حمد بن سويلم».

توجه «عبد العزيز» إلى «سدير» لمهاجمة مدينة «جلاجل» الهامة، وتركز القتال حول مناطق «العميري» إلى الشمال من المدينة، وبعدها تابع المسير نحو «الروضة». وهناك استدعى قضاة تلك المنطقة وقضاة الحوطة والداخلية، وطلب منهم أن يرافقوه إلى الدرعية، ولعله أراد من ذلك أن

يطلعوا الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عن الأمور الدينية والمادية المتهمين بها. وعرج في طريق عودته على «العودة» وأخذ اثنين من كبار رجالها كرهائن وهما «عثمان بن سعدون» و «منصور بن حمد» ليضمن بهما حياة «عبد الله بن سلطان» الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب الأمير هناك. وبعد إقامة قصيرة في الدرعية سمح لهذين الاثنين بالعودة إلى ديرتهم بعد أن تعهدا بأن يكون سلوكهما طيباً. لكن بعد أن وصلا إلى «العودة» سرعان ما أقدما على قتل الأمير وشخصيتين كبيرتين هناك. اغتصب «عثمان بن سعدون» الإمارة، وعلى الفور أعلن عن رفضه للدعوة السلفية، وعلى أي حال يبدو أنه ضبط سلطته على المدينة واستمر في حكمها لعشر سنوات إلى أن قام أحد الأشخاص باغتياله.

أما في منطقة «الروضة» التي تصنف إلى جانب منطقة «جلاجل» كمنطقة رئيسية من مناطق «سدير»، فتم خلع الأمير «فوزان» (ابن جاسر؟) ابن ماضي الذي كان قد خلف عمه «محمد» بعد اغتياله في عام ١٧٤٥، كما نفي الأمير «فوزان» ليخلفه أخوه «عمير بن جاسر».

وفي فصل شتاء عام ١٧٥٧/ ١٧٥٨ كان الأمير «عبد العزيز» تواقاً إلى القتال، وكانت «ثرمدا» هدفه للمرة الثانية. وعليه أمضى تلك الليلة في نصب كمينه المعتاد في منطقة وادي جمال وتمكن من الدخول إلى واحة النخيل عن طريق فتح ثغرة في الجدار. رابطت قوته الرئيسية في تلك الواحة بانتظار الفجر لتشن الهجوم. لكن سمع أحد حرس المدينة أصواتاً غير عادية وهرع ليخبر الأمير «إبراهيم بن سليمان». على الفور قدر الأمير وأعد خطته وفقاً لذلك بانتظار الفجر، ووزع قواته إلى فريقين: أرسل فريقاً ليراقب

مخرج واحة النخيل في حين أرسل الفريق الثاني ليهاجم الكمين في داخل الواحة. ونشب القتال وقتل الأمير وابنه في تلك المعركة الضارية التي حارب فيها الطرفان بشكل مميت، لكن الوهابيين منوا أيضا بخسائر جسيمة، إذ قتل منهم ثلاثون رجلاً مقابل ثمانية رجال من فريق المدافعين. بعد تلك الواقعة سار «عبد العزيز» باتجاه مقاطعة «سدير» ودخل بلدتي «الحوطة» و«الجنوبية» دون معارضة من أهلهما، وكانت الرياض هدفه التالي فهاجمها خلال شهر رمضان وسقطت في يده في شهر آيار من عام ١٧٥٨. دارت معركة الاستيلاء على الرياض في واحة يطلق عليه اسم «أم العصافير»، وكان «تركي بن دواس» وهو أخو «دهام»، كما كان عدد من الشخصيات الرئيسية في الرياض من بين المصابين. تبع ذلك معركة «البنية» الثانية. وفي طريق عردته إلى الدرعية أصدر «عبد العزيز» أوامره ببناء قلعة «الغزوانة» في وادي حنيفة غرب الرياض لتكون نقطة انقضاض على الحملات المزعجة التي تستهدف البلدة وضواحيها. وتم إنجاز القلعة في سبعة أيام فقط لكن لم تشأ الأقدار لـ «محمد بن سعود» أن يساهم بسقوط «دهام» خلال السنوات السبع التي تبقت من عمره.

كانت المشكلات تستعر في «حريملاء» وكان الأمير الجديد «مبارك بن عدوان» قد بدأ في إعطاء نفسه قدراً أكبر من حجمه وبدأ يستخف بالوهابيين من بين رعيته، وسبب شكاوى هؤلاء الوهابيون خشية لدى أمير الدرعية من احتمال انشقاق تلك المنطقة عن الحكم أو الشريعة الجديدة. سبق لـ «مبارك» كما أشرنا أن رافق «عبد العزيز» في حملته ضد الرياض، وفي طريق عودة الحملة إلى الدرعية اقترح الشيخ «محمد» وجوب أن يبقى «مبارك» في

الدرعية ضيفاً عليها دون إجحاف بحقه في ممتلكاته في «حريملاء». اقترح «محمد» أيضاً أنه يجب أن يحل محله ابن عمه «حمد بن ناصر بن عدوان». وباعتبار أنه لم يكن لديه أي خيار سوى أن يطيع ما كان في الواقع أمراً فعمد إلى التظاهر بأنه قبل الدعوة طوعاً، ولم يلق أية معارضة لطلبه في زيارة شقيقته في العيينة التي كانت متزوجة من «حمد الطويل». وفعلاً ذهب إلى هناك ونادى بأعلى صوته مع قرع الطبل في الأسواق بأنه صاحب الحق في الإمارة، وسرعان ما التف حوله مؤيدوه الأوائل.

أغلق «حسن بن عبد الله بن عيدان» ونيابة عن الأمير الجديد المسؤول عن الحامية بوابة البلدة الرئيسية في وجه «مبارك» وجماعته، وخوفاً من أن يقوم «عبد العزيز» بتثبيت دعائم النظام والأمن هناك، فرَّ «مبارك» وكبار أتباعه إلى «الرغبة». ألقى أمير المنطقة القبض على واحد من أتباع «مبارك» ويدعى «علي الجريسيي» وقام بإعدامه، إلا أن «مبارك» تمكن من الهرب عن طريق قرية «الصفراء» وتوجه إلى «المجمعة» التي وافق حاكمها «حمد بن عثمان» وزعماء الحمرة من عائلة مدلج على دعمه ومساعدته. وعلى الفور انضم إلى صفوف المتمردين كلاً من «إبراهيم السليمان» أمير «ثرمدا» وكل قرى «الوشم» باستثناء «شقراء». يبدو أن حادثة «الرغبة» سبقت الهجوم على «ثرمدا» الذي حدث في شهر حزيران من عام ١٧٥٨. حيث تجمعت في ذلك التاريخ قوات التحالف المشتركة للتزود بالماء من «الفقير» القريبة من «رغبة»، وليراقبوا أيضاً التطورات وليعدوا خطة حملتهم. إلا أن أخبار وصول «عبد العزيز» على رأس قوة كبيرة إلى «حريملاء» حدت من حماستهم وعليه توجهوا إلى القسم الرئيسي من «رغبة» والمعروف بـ

«الجوى»، وهناك حاصروا «علي الجريسي» في القلعة الرئيسية وقتلوا واحداً من زعماء العرينات ويدعى «راضي بن مهنا بن عبيكة»، وقطعوا عدداً من أشجار النخيل. في تلك الأثناء كان معظم الناس متواجدين في الطرف الثاني من البلدة والذي يطلق عليه اسم «الحزم» ولذلك لم يفعلوا أي شيء لنجدة أميرهم المحتجز في القلعة. وعلى أي حال انسحب المهاجمون المرابطون حول القلعة لدى سماعهم بأن «عبد العزيز» كان قادماً على رأس قوته وهربوا تاركين جماعتهم في «الحزم» لمواجهة الزعيم السعودي الذي دمر المنازل وقدم واحات النخيل هناك إلى «الجريسي» كمكافأة على إخلاصه.

شهد خريف عام ١٧٥٨ وكذلك شتاء ذلك العام تحد جاد للحكم السعودي. تزعم ذلك التحدي زعيم الأحساء «عريعر بن دجينٍ» ووقف إلى جانبه رجال قبائل «بني خالد» ووجدوا أنصاراً لهم في العديد من مناطق «نجد» وبالتحديد في «الوشم» و«الرياض» إضافة إلى جماعة أخرى من «سدير» و«الخرج» وأماكن أخرى. تمركز «عريعر» بقواته المخيفة في «الجبيلة» بوادي حنيفة، وأسفر ذلك عن مصادمات وجد المعتدون أنفسهم مضطرين فيها إلى الانسحاب، وسارع سكان «ثادق» و«المحمل» بعد أن كانوا قد انضموا إلى القوات المعادية بعقد صلح مع الدرعية ووافقوا على أن يدفعوا تعويضاً يكفر عن عدم ولائهم، كما وافقوا على تجديد البيعة للحكم السعودي. وعليه أرسل رجل من الدرعية يدعى «ساري بن يحيى بن عبد الله ابن سلويم» ليحكم تلك المناطق وليضمن طاعتها وولائها للسلطة المركزية. وفي تلك الأثناء قام «عبد العزيز» بمهاجمة القرية المجاورة

«القصب» وأخضعها لحكمه تماماً وفرض على أناسها دفع فدية مقدارها ٣٠٠ قطعة ذهبية.

وفي عام ١٧٥٩ سار بقواته إلى منطقة الخرج ليؤدبها بسبب الدور الذي لعبته في تلك الحركة، وانقض على «الدلم» و«نعجان» وأنزل بهم بعض الإصابات وسلب العديد من أملاكهم. وفي طريق عودته إلى الدرعية وجد «عبد العزيز» نفسه يحارب «ثرمدا» وأسفر ذلك عن نتائج مماثلة للقتال مع «الدلم» و«نعجان». وبعدها هاجم أيضا «أشيقر» حيث كرر أسلوب نصب الكمائن ونجح فيه للغاية. انتهت حملات ذلك الموسم بالنجاح التام الذي تجلى في أن قام «عبد العزيز» بهجوم آخر على الخرج وعلى الدلم ونعجان وصادر منها عدداً من الجمال وأوقع بين سكانها خسائر كبيرة. وفي خطوة لممارسة السلطة الفعلية على العيينة قرر الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» والأمير «محمد بن عبد العزيز» أن يخلعا «مشاري بن معمر» من منصب الإمارة وأن يعّينا مكانه «سلطان بن محسن المعمري». وعليه توجه الشيخ بنفسه إلى العيينة ليشرف على تدمير قلعة العائلة. وكان ذلك مجرد عمل قصد به الرمز إلى اندماج أملاك وأطيان «العيينة» مع أملاك الدرعية، إن أسلوب الأمير الجديد علاوة على حقيقة أن اسمه لم يكن يدل بأنه في الواقع واحد من أفراد أسرة «المعمر» ليبرهن احتمال أنه كان واحداً من الأتباع أو حتى الخدم.

كان «عبد العزيز» في تلك الفترة نشطاً في حملاته وغزواته، فهاجم «منفوحة»، وغزا العسكر وهي جزء من «ظفير» في «الثرمانية» بالقرب من «رغبة»، وأغار على الوشم وهناك واجهته جماعة صغيرة من محاربي

«ثرمدا» ولكن هذه الجماعة فرت أمام قواته الفائقة العدد ولجأت إلى قرية في «الحريق» بالقرب من «القصب»، وطاردهم عبد العزيز وطلب منهم الاستسلام إلا أن القرويين البواسل هناك رفضوا أن يسلموا ضيوفهم وفضلوا أن ينقذوهم من أيدي السعوديين بدفع فدية بلغت ١٥٠٠ قطعة ذهبية.

إن موسم الغزو والحملات لعام ١٧٦٠/ ١٧٦١ دفع بـ «عبد العزيز» في كافة الاتجاهات، فكانت الحملة الأولى نحو «سدير» حيث جابه جماعة من «الروضة» اشتبك معها لفترة قصيرة وبشكل شرس دون تحقيق أية نتائج سياسية تذكر.

وبعد ذلك شن حملة على «الرياض» أصيب فيها «فهد» أحد أبناء «دواس» بجراح مميتة، وتبع ذلك غارة على «منفوحة» وغزو لبدو «سبيع» عند تجمع مياه «حفر العتش» وهناك استولى على ٨٠٠٠ جمل وعلى عدد كبير من الأملاك، وانتهى موسم الغزو ذلك بحملة ضد «الرياض» أسفرت عن خسائر وإصابات بين صفوف كلا الطرفين دون نتائج إضافية تذكر.

حدث في عام ١٧٦١ أن سقط «مبارك بن عدوان» الحاكم السابق لـ «حريملاء» ضحية لمرض الشلل. وشهد فصل خريف ذلك العام استئناف النشاطات العسكرية الاعتيادية التي كان يقوم بها الأمير «عبد العزيز». شن «عبد العزيز» في ذلك اليوم على «منفوحة»، كما هاجم «نعجان» في الخرج والحق خسائر بها وأوقع بعض الإصابات في صفوف المدافعين. وتقريباً بعد ذلك مباشرة توجه إلى «الوشم» وهاجم «مرات» و«الفرع» فكانت النتيجة أن قرر أهالي الفرع أن ينضموا إلى الحركة الوهابية، وعليه أرسلوا بموافقة

أميرهم «منصور بن حمد بن إبراهيم بن حسين» مندوباً عنهم إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وإلى الأمير «محمد» لمبايعته وأداء قسم الولاء للسلطة هناك. وكبرهان عملي على ولائهم أعلنوا الحرب على قرية «أشيقر» المجاورة، واستمرت الحرب بشكل متواصل لمدة سبع سنوات إلى أن تمكن الأمير «منصور» من الاستيلاء على أبراج الخصم الواقعة في الأطراف الجنوبية من الواحة والمتاخمة للجهة العليا من الفرع. وهكذا انتهت «أشيقر» بأن خضعت بشكل تام للحكم السعودي بعد نضال عنيف بلغ في مجمله عشرون عاماً.

استأنف «عبد العزيز» هجماته ضد «الرياض»، وتمكن في تلك الهجمات من قتل ثمانية من حراس ناحية «مقرن» وأصاب «شعلان بن دواس» وهو أحد أحفاد «دهام» بجراح. وبعدها التفت إلى «الوشم» وهاجم «أشيقر» مناصراً بذلك أهل «الفرعة» الذين بنوا - بالاتفاق مع أهلي «أشيقر» الموالين للدولة السعودية - حصناً أطلقوا عليه اسم «حليلة» ليحمي ظهورهم وبالتالي يكون نقطة تهديد للأعداء. كانت أمطار وفيضانات عام ١٧٦١/ ١٧٦٢ جيدة بشكل استثنائي وانتعشت كافة مناطق البلاد، إلا أن ثمة مرض عرف باسم «الدمغة» أو حمى الواحات الذي يصيب الدماغ انتشر في البلاد. أودى المرض بحياة العديد من الناس بمن فيهم شخصيات دينية هامة كما زاد غزو الجراد من متاعب الناس إذ خسروا كميات كبيرة من محاصيلهم الزراعية.

افتتح «عبد العزيز» موسم غزوات عام ١٧٦٢/ ١٦٧٣ بغارتين على «الرياض» لكن لم تكن نتائجهما أفضل من نتائج الغزوات السابقة. وبعدها التفت إلى مناطق «الأحساء» وهناك أقام معسكره في جوار «المطيرفي» ليقوم

بسلسلة من الهجمات في عدة اتجاهات. وتمكن كنتيجة لتلك الغزوات من جني الكثير من الغنائم ومخلفاً في صفوف الأعداء إصابات بلغت نسبياً حوالي سبعين إصابة. وبعد هجوم غير مثمر على بلدة «المبرز» توجه إلى «الدرعية» وفي الطريق إلى هناك مر بقافلة كبيرة بالقرب من منطقة «أرمة» محملة بمواد تموينية جلبتها من الشاطئ لأهالي الرياض وحرمه. استولى «عبد العزيز» على كافة البضائع المخصصة للرياض، إلا أنه ترك بضائع أهالي حرمه بسبب المعاهدة التي عقدوها مع سلطة الدرعية. في تلك المرحلة تخلت قرية «اثيثية» في منطقة «الوشم» عن ولائها للحكم السعودي وهاجمت معتنقي الدعوة السلفية في المناطق المجاورة. لكن على ما يبدو كان «عبد العزيز» مشغولاً بغارة شنها على أهالي «سبيع» بالقرب من «سيح الدبل»، ولم يستطع أن يتخذ إجراءً من شأنه أن يعيد المتمردين إلى جادة الصواب. ولعل ثمة حدث آخر هام جداً استحوذ على كل اهتمام الدعية ولم يجعلهم يهتمون بهذه القضية البسيطة نسبياً، وكان ذلك الحدث هو استسلام «دهام بن دواس» الذي على ما يبدو تعب من القتال الطويل، إذ أرسل وفداً مفاوضاً إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وإلى «محمد بن عبدالعزيز» وأرسل معهم كفارة لدفع الأذى والضرر بلغت ٢٠٠٠ قطعة ذهبية، وطلب السماح له بالدخول في ظل الدعوة السعودية ودعوتها السلفية، ووعد بأن يحترم قادة ذلك التحالف وأن يطيعهم.

نادراً ما يتوقف المؤرخون من نجد ليدونوا في سجلاتهم التاريخية هذا التطور أو هذا الحدث المذهل، كما أنهم لا يعقبوا عليه. ويبدو أنهم أكثر اهتماماً بنتائج واحدة من الحملات الوهابية التي كانت بالكاد متواترة وهي

حملة قام بها «عبد العزيز» ضد «جلاجل» البلدة الرئيسية في «سدير». دارت في تلك البلدة المناوشات الاعتيادية التي كانت تسفر عن إصابات وخسائر في المزارع، وعلى إثرها قرر زعيم «جلاجل» أن يستسلم للدولة الناشئة، وحذا بذلك حذوه العديد من المناطق والقرى في «سدير». وعندما كان «عبد العزيز» ماراً بـ «رغبة» في طريقه إلى الدرعية، وصلته أخبار مفادها أن جماعة «العجمان» كانت قد اعتدت على تجمع صغير لبدو «سبيع» إلى الغرب من نطاق طويق، فتابع «عبد العزيز» أثرهم ولحق بهم في سهل «حدبة القذلة» الواقع بين مرتفعات «أرشة» ونفوذ «سدير». وبالرغم من أنهم تفرقوا قبل أن يحتدم معهم في القتال، إلا أنه استطاع أن يقتل منهم سبعين رجلاً وأن يأسر حوالي مائة، واستولى أيضاً على حوالي أربعين فرساً من خيولهم.

كان فصل شتاء عام ١٧٦٤/ ١٧٦٥ موسماً حافلاً بالأعمال التي توجب على «عبد العزيز» - الذي لم يعرف التعب - أن يقوم بها. بدأت تلك الأعمال بغارة على منطقة «السعيد» وهي من مناطق «ظفير»، إذ رافقه في تلك الحملة الموجهة ضد «حمد المديهم» زعيم منطقة «السعيد» فرقة من الرياض بقيادة «دواس بن دهام».

هاجم «عبد العزيز» البدو في منطقة «حرب» وألحق بهم هزيمة منكرة وقتل منهم ثلاثين رجلاً واستولى على كافة ممتلكاتهم، لكن توجب عليه في شهر تشرين أول من عام ١٧٦٤ أن يتعامل مع تطورات أكثر جدية، والتي نجمت وبشكل مباشر عن الانتصار الذي حققه على «عجمان» في «حدبة القذلة» في الربيع الماضي. حدث أن فر من نجا من تلك المعركة إلى «نجران» وهناك

تمكنوا بسهولة من إقناع القبائل المتوحشة من الانضمام إليهم لشن هجوم مضاد على الوهابيين والعمل على فك أسر رجال قبائلهم المسجونين لدى الوهابيين. كان زعيم «نجران» في ذلك الوقت رجل يدعى «حسان بن وهبةالله» الذي شملت سلطته قبائل «الوعيلا» و«اليام». حشد حسان من رجال تلك القبائل عدداً ضخماً من المحاربين وسار بهم للهجوم على «الدرعية»، وعند وصولهم قرية وواحة «حائر السبيع» في وادي حنيفة عملوا على محاصرة القرويين هناك. لكن في تلك الأثناء وصلتهم أخبار تقدم «عبدالعزيز» على رأس قوة كبيرة من مؤيديه وأنصاره، وعلى الفور انتشر النجرانيون لملاقاة العدو واحتدمت المعركة المستميتة وأسفرت عن هزيمة وإرباك وضرر لحقت جميعها بقوات «عبد العزيز» الذي هرب عاجزاً عن ضبط النفس. أنزل النجرانيون في صفوف «عبد العزيز» إصابات بالغة، وقتلوا من قوات عبدالعزيز حوالي ٥٠٠ رجل وأسروا العديد منهم. ويقال بأن الدرعية لوحدها وبموجب قائمة الموتى فقدت سبعة وسبعين رجلاً في حين مات من «منفوحة» سبعين رجلاً ومن الرياض خمسين. ومن بين الجماعات الأخرى التي تكبدت خسائر في الأرواح كانت جماعة «عرقة» حيث قتل منها ثلاثة وعشرون رجلاً، وجماعة «العيينة» وقتل منها ثمانية وعشرين، وجماعة «حريملاء» ستة عشر، وجماعة «ضرما» أربعة. وقتل من جماعة «ثادق» رجل واحد. ووقعت بقية الإصابات بين قوات البدو، وبلغ العدد الإجمالي للأسرى ٢٢٠ أسيراً.

وعندما وقف «عبد العزيز» ومن نجا من أهالي الدرعية أمام الشيخ «محمد ابن عبد الوهاب» لينقلوا له خبر الكارثة، هدأ الشيخ من نفسه بأن قرأ الآية التالية من القرآن: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلّون إذا كنتم مؤمنين﴾.

على أي حال توج ذلك التحدي للدعوة التصحيحية بالنصر وتحقق على أيدي شرذمة محتقرين ومنبوذين من «نجران» و «الأحساء» وكان بمثابة ضربة لمؤسسة الدعوة السلفية. جللت ظلال المأساة آخر أيام «محمد بن سعود» بالسواد، إذ بلغ به الكبر آنذاك نهاية مطاف أعماله المشرفة. إن ردة فعل السعوديين حيال هذا الوضع الخطر كانت مفاجئة للجميع، فبدلاً من أن يشمروا عن سواعدهم وينتقموا للهزيمة المؤلمة التي لحقت بهم، قرروا أن يتفاوضوا مع المنتصرين للتوصل إلى تسوية. فقد تطورت الأحداث ووصل النجرانيون إلى المناطق المجاورة للرياض في طريقهم إلى عاصمة الدولة السعودية.

استدعى الشيخ «محمد بن عبد الرهاب» زعيم الظفير «فيصل بن سهيل» ليقوم بدور الوسيط. وأسفرت المفاوضات التي جرت في واحة «المهاتة» الجميلة والتي كان «حسان بن هبة الله» ضارباً خيامه فيها عن تسوية اتفق فيها الطرفان على أساس تبادل كافة الأسرى، ويقال إن التسوية شملت أيضاً دفع تعويضات معينة. وعلى إثر تلك التسوية قام زعيم «نجران» بحل خيام معسكره وأقفر عائداً إلى دياره ناسياً على ما يبدو «عريعر» أمير جماعة «بني خالد» الذي كان قد اتفق معه على أن يوحدا قواتهما ويشنان هجوماً مدبراً على العاصمة السعودية. وعلى أي حال انتهت الحرب قبل أن يستعد «عريعر» للمشاركة بها. وبالرغم من أنه كان من غير المجدي الآن أن يستمر في قراره للهجوم على العاصمة السعودية دون حليفه القادم من منطقة الجنوب، إلا أنه ما لبث أن تقدم على رأس قوة كبيرة إلى منطقة مجاورة للدرعية وأطلق عليها النيران والقذائف التي سقطت بين واحات النخيل أثناء حدوث مناوشات كانت تتم على فترات متقطعة استمرت على مدى إقامته المؤقتة والتي بلغت ثلاثة أسابيع. غادر «عريعر» بعد ذلك راجعاً إلى

الأحساء مخلفاً وراءه حوالي أربعين قتيلاً من رجاله، في حين بلغت الخسائر والإصابات في صفوف أهالي الدرعية إلى اثني عشر إصابة.

وهكذا انتهت آخر حرب من حروب «محمد بن سعود» الذي وُوري جثمانه الثرى (في صيف عام ١٧٦٥) بعد عمر طويل مشرف في مقبرة الدرعية التي احتوت على قبور آبائه وأجداده.

عرفه شعبه بورعه وإنسانيته أكثر مما عرفه ببسالته وشجاعته، وفي الواقع كان آخر عهده في الحملات القتالية تلك الحملة التي شنها ضد الرياض في عام ١٧٥٠. وبعدها ترك قيادة القوات ليتولاها في بادئ الأمر أمير العيينة «عثمان ومشاري» وبعدها آلت حصراً لابنه ووريثه «عبد العزيز».

حظي «محمد بن سعود» مرتين باستسلام ألد أعدائه أمير الرياض «دهام» ومات وهو على يقين بأنه تمت تسوية أكبر مشكلات عصره بشكل نهائي، فلم يقم «دهام» وللمرة الثانية في طرح نية الدرعية عن عاتقه بشكل نهائي إلا بعد وفاته.

كانت مشكلة «نجران» الضربة القوية التي حدثت له في حياته. ربما كان الملك الطاعن في السن قد شعر بالقلق على مستقبل مملكته، علماً بأن الهزائم اللاحقة التي تعرضت لها جماعة «بني خالد» طمأنته على صحة وعافية القوة العسكرية الداعمة لقضيته، يعود الفضل في بزوغ الحركة التصحيحية إلى جهوده، كما يعود الفضل للقضية نفسها في اكتسابه واكتساب من خلفه من القادة لأوسمة الشهرة والشرف. ويمكن القول هنا وبكل صدق أنه لولا «محمد بن سعود» لما شهدت الدولة السعودية ودعوتها السلفية أيامها المجيدة. كان «محمد بن سعود» الشخصية التي مهدت الطريق أمام إحياء الدين الإسلامي.